فى زوايا الطريق!

دقت إحدى الساعات الكبرى على مقربة منى دقات ثمان والليل بارد الأنفاس وأنا أنقل الخطى فى زحمة الناس على طور الشارع. ونيدة ثقيلة لا من كلال ولا من ضنى ولكن مما كان يثقل قلبى من صور وقع بى عليها هذا النظار اللعين ...

وأريد أيها القارىء أن تقاسمنى بعض ما أثقل قلبى فما يزيده لعمرك ثقلا أن أحمله وحدى ، وكثيراً ما سقت إليك ما أضحكك فإن أنا صببت عليك اليوم بعض همى فلا تكن من الغاضبين ...

هؤلاء غلمان وبنات من أبناء الشارع وبناته قد أقعوا على باب أحد المطاعم يطعمون بأعينهم مع الطاعمين بأسنانهم وقد حرمهم التقدم رفع القامة من الشوارع حذر الكوليرا ، وهو منظر قد زال عنه معناه لكثرة ما ألفناه ، ولكن هاهم أولاء جماعة ممن يأكلون بأسنانهم جماعة ليسوا من أهل هذا البلد الذى آواهم فأشبههم يأبون إلا أن يبرزوا المعنى الذى غاب فهم يلقون ببعض اللقم والقشور ويلهون ضاحكين يرأى هؤلاء الغلمان كيف يقعون عليها كما تقع الكلاب والقطط وكيف يتزاحمون ويختصمون

ومضيت ثقيل الخطى ثقيل القلب فلم أذهب غير بعيد حتى انعطفت عند زاوية فإذا رجل خشبية تمتد إلى جوار رجل من عظام ولحم وإذا صاحب الرجلين قد أسند ظهره إلى الحائط واستراح من بعض همه بغفوة وأمامه علب الكبريت لعله لم يبع منها بما يتبلغ به فنام ، وابنه الهزيل النحيل يدفعه بيده دفعاً رقيقاً ليوقظه لأنه جائع ؛ وألقيت إلى الصبى قرشاً فما وثق منه فى كفه حتى اندفع يوقظ أباه فى شدة وسرعة ليزف إليه البشرى ...

ومشيت ثقيل القلب وئيد الخطى فما هى إلا خطوات حتى وقفت حيال منظركم تمنيت لو رآه كل رجال الفن فهاهو ذا ضرير قد اضطجع حتى أوشك أن يتمدد على سلم دكان مغلق وأسند ظهره إلى دركة ورفع وجهه صوب السماء فانعكس عليه نور مصباح قريب ، ومد يده يستجدى فى صمت لا ينطق ولا يتحرك أية حركة فكان منه فى هذا الوضع تمثال بالغ الروعة لو وقع عليه فنان لما ساوى ذلك عنده وقوعه على كنز فما يصور البؤس شيء أحسن مما تصوره هاتان العينان الغائرتان وهذا الوجه الضارع وهذه اليد المعروقة المرتجفة ، ونور المصباح القوى فى وجهه يجعل من ذلك كله صورة ترى ولا ينهض لوصفها كلام ؛ وجاء غلام فانقض على التمثال كالفرخ الجائع وأخرج فى مثل خطرة الطرف ما فى جيبه من مليمات وقروش وولى لا يلوى على شيء وانتفض التمثال انتفاضة حسبت أن قد تحرك لها رخام السلم ، وأقبل بعض من شهدوا هذا السطو فألقوا إليه من قروشهم ما أذهب روعه..

ومشيت موجع القلب ثقيل الخطى فلم أكد أنعطف عند زاوية أخرى حتى إذا بى تلقاء رجل يزحف على إسته ويديه وقد ثنى إحدى رجليه أما الرجل الأخرى فلم يبق منها إلا جزء من الفخذ قد كشف عنه لأنه موضع « الأعلان » وبرهان العجز عن العمل ، وصبر الناس به لا يتألم أحد فيما أرى لأنهم ألفوا أن يردوا مثل هذا كما ألفت أنا ولكنى تألمت وتألمت وأرجو منك أيها القارىء أن تصدقنى أننى تألمت كما أتشفع عندك بكل عزيز لديك أن تتألم مثلى ...

فإن لم يكن آلمك هذا فدونك شيء آخر وقعت عليه عند زاوية أخرى ، دونك شيء ولا أقول رجلا ، فليس ثمة إلا الجذع فقط لا يدان ولا رجلان ، ومع ذلك فهذا الشيء يزحف ويقطع الطوار كله زاحفاً ... يا إله العالمين إنى أستنيثك ! إن لم تكن اللاعبى لمثل هذا فلمن تكون ؟ وفى أى شرع يكون على هذا أن يعمل — أستغفرالله — بل أن يزحف ليكسب قوته وحوله السيارات الفخمة تنهب الأرض باللاعبين بالذهب !

ومشيت باكى القلب بطىء الخطى حتى كنت أمام «جروبى» فإذا بفتاتين من بنات الشارع تتشاجران فى عنف على أعين الناس ، وقد ألقتا ما معهما من ورق اليانصيب ، وأنشبت كل منهما أظفارها فى عنق الأخرى ، وذلك لأن إحداهما قطعت الطريق على صاحبتها فباعت دونها ورقة !

ونظرت فإذا معركة أخرى أشد عنفاً تدور غير بعيد بين فتاتين ناهدتين من خدم المنازل ، وقد شدت كل منهما شعر الأخرى وأهوت عليها بحفانها ، وذلك لأن إحداهما ، كما علمت ،

غلبت الأخرى على عيشها فأخرجتها من عملها واستمتعت بالأجرة دونها ؛ وتقاطر السابلة يشهدون هذه المعركة الكبرى ، وقال أجنبي من المارة لصاحبه وهو يضحك : أنظر... فهذا نذير الحرب العالمية الثالثة ...

والتفت على حرب أهلية ثالثة بين حوذي أوقف جواديه الهزيلين ، ووثب من عربته التي شهدت فيما أحسب القاهرة في عهد إسماعيل ، وراح يصخب في لهجة الحوذية ونغمتهم ، ويطلب إلى الراكب بقية حقه ، وإلا فمن أين يأكل ، ومن أين تأكل الخيل ، وهو يستغيث الله والمسلمين ، ويخوف هذا الذي لا يريد أن يدفع عاقبة الظالمين ، وقد دارت حولهما حلقة من المتفرجين ، والحوذي يتدفق بلاغة ، إذ يصف الغلاء وما صنع بالناس ، وكأن في فمه « ميكروفون » . .

ومشيت ضائق الصدر ، حيران الخطى ، ملء نفسي الألم مما أشهد من مخازي مجتمعنا العظيم ، فإذا أنا بلقاء عتل يستوقفني قل أن رأيت مثله ضخامة وطولا ، له عنق هو وحده أضخم من ذلك الجذع الذي كان يزحف على الأرض ، أما بدنه فيضل البصر في ضواحيه ، ومد إليّ ذلك المارد يداً تتسع قبضتها لتتلقى حملا أو غلاماً ، وقال في غير تلعثم أو تردد : « يا بيه ... أنا جوعان ... عاوز حق لقمة » ! وحرت والله بين أن أضحك فأسري عن نفسي بعض ما بها ، أو أن أصرخ في وجهه علّي أنفس عني بعض همي وغلبتني الثانية فقلت : اغرب عني ، فلن يشبعك كل ما في جيبي ، إنك تبني عمارة وحدك ، فهل يصح أن تطلب لقمة !

وبعد ، فيا حكومة ... يا وزارة الشؤون الاجتماعية ... يا جماعات البر والإحسان ... يا دعاة الإصلاح ... يا من تغارون على كرامة وطنكم وسمعة عاصمتكم ... الغوث ... الغوث ... إن جميع ما رأيته في زوايا الطريق في ليلة واحدة ، وعلى أبعاد متقاربة في أهم بقاع القاهرة العظيمة الجميلة مما يبنته وكثيراً مثله مما لم أبين يصرخ صراخاً عالياً لمن كان له سمع أن هذا عيب ... اجعلوها من باب الترف ، فأزيلوا من الطرقات هذا الأذى ، فما أطمع أن تجعلوها من الإنسانية !

المنصف

في محنة الوباء :

يا للأغنيـــاء للفقراء ! !

للأستاذ فريد عين شوكة

جُهدي ! وما عندي سوى الأقوال
أدعو لمكرُمة ، وحسن فعال

جهد المقلّ ! وأين لي بخزائنٍ
كالأغنياء تفيض بالأموال ؟

لو كان عندي المال ، لم أبخل به
في النائبات ، على رقيق الحال !

الكادحين الرازحين من الطوى
الغارقين بشِقوة وضلال !

***

غفراً مراةَ النيل ! لستُ بحاسدٍ
لكم على فيض الغنى السلسال

كلا ، ولا أنا سائل عن وردِه
أجرى حراماً أم سرَى بحلال

لكن أُعاتبكم لشُحِّ نفوسكم
يوم السباق إلى ندًى ونوال !

هذا الوباء طغى بمصرَ ، فزادها
هولا ، على ما ران من أهوال !

كلُّ الطوائف راعها ! لكنما
ذاقَ الفقيرُ لديه سوء وَبال !

قست الحياةُ عليه ! فهو محطمٌ
نهبٌ لعادية الضنَى الغوّال !

ما بالكم لا تنهضونَ لِغوثهِ
بالمال يرخصُ في أجلّ نضال ؟

أين الوفاء لمصرَ إن لم تبذلوا
في غير تقتير ، ولا إقلال ؟ !

أتبيتُ في فزَع ، وتصبحُ في أسىً
وتظلُّ نهب عواصف البلبال !

والأغنياء الناعمونَ بخيرها
يحيونَ في رَغد ، وراحة بال !

بل أين حق الكادحين لكم من الـ
ـرّاع والصُّناع والعُمّال ؟ !

مُدُّوا لهم كفَّ الحنان ، فطالما
جادوا لكم بجلائل الأعمال

واسعوا إلى مرضاتهم ، لا تنفثوا
في البائس المحروم شرَّ خصال

واستعبدوا الأموالَ ، لا تغدوا بها
أسرَى ، تعيش العمرَ في الأغلال

ما كانت الأموالُ غيرَ وسيلةٍ
للحمد والمجدِ الرفيع العالي

والمال مهما غرَّ سحرُ بريقه
يفنى كما يفنى خِداعُ الآل !

برقٌ يشعُّ ، وفتنة خلاّبةٌ
إن أطمعت فالى وشيك زوال

فابنوا لكم أسمى المكارم واشتروا
أبقى المحامد في فم الأجيال

(منوف)

فريد عين شوكة